

احترام الكبير وتوقيره

من أسمى مقاصد الشريعة

الحمد لله الذي ميز رسولنا بالأخلاق، فزكى خلقه فقال وهو أصدق القائلين: **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)** وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد بأن نبينا وسيدنا محمد إمام المرسلين، وسيد الأولين والآخرين وبعد؛

نعيش اليوم مع خلق عظيم قويم، من أخلاق ديننا الحنيف **الاحترام الكبير** والتوقير والاحترام، والتبجيل من أخلاق سيدنا رسول الله ﷺ.

أولاً: التوقير من الكتاب والسنة وصوره

الأخلاق رأس كل خير، وطريق السعادة وسبيل النجاة، وبالأخلاق تستقيم الأمور، وتنهض الأمم، كما قال شوقي رحمه الله:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت...

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا. وقال كذلك:

صَلَحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرَجُعُهُ فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِمَّ،

ولذلك فقد عنيت الشريعة بأمر الأخلاق وتقويمها، ومن بين تلك الأخلاق التوقير والاحترام والتبجيل، لمن هو أكبر منك سناً، وأكثر منك علماً، وأرفع منك درجة، لا على أساس العنصرية أو الفرقة، بل على أساس التقوى، وإنزال الناس منازلهم، فالحق لما خلق الخلق، جعلهم طبقات، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، وأمرنا بأن نحترم هذا التنوع، وأن نعطي كل ذي حق حقه، وأولى الناس بالتوقير والاحترام والتبجيل

سيدنا رسول الله ﷺ، فهو سيد ولد آدم ولا فخر، وهو أو من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وحامل لواء الحمد ولا فخر، الشافع المشفع، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

يقول الحق سبحانه في مقام توقير سيدنا رسول الله ﷺ: **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9) (الفتح)**

قال أهل التفسير في التعليق علي تلك الآية: لم يؤمن بالرسول من لم يعزر أوامره ولم يوقر أصحابه، والتعزير والتوقير لمقام لسيدنا رسول الله ﷺ بأن يكون النبي ﷺ مقدم عندك علي نفسك وولدك وأهلك والناس أجمعين مصداقا لقوله ﷺ: عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - : **(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**

((صحيح البخاري) وتوقيره ﷺ يكون باتباع سنته، ومحبته، قولاً وعملاً، وذكره والصلاة والسلام عليه سرا وجهراً، وقال السدي: "وتوقروه": وتُسَوِّدُوهُ.

وقال قتادة: "أمر الله بتسويده وتفخيمه وتشريفه وتعظيمه" أخرجه عبد بن حميد وابن جرير الطبري في التفسير، ونهانا أن نخاطبه صلى الله عليه وآله وسلم كما يخاطب بعضنا بعضاً فقال سبحانه: **لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا [النور: 63]** وقد ذهب أهل التفسير في الضمير مذهبين والخلاصة فيهما أن الصلاة علي سيدنا رسول الله ﷺ وتسويده وتفضيله عما سواه، نوع من الطاعة والعبادة والتوقير، ومن توقير سيدنا رسول الله ﷺ توقير صحابته الكرام.

توقير الوالدين:

ومن أولى الناس كذلك بالتوقير والاحترام، الوالدين، كما قال الحق سبحانه: **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24 الأسراء)** فكل عاق لوالديه بعيد عن رحمة الله، بعيد عن الجنة، لا يجد ريحها، ولا ييسر الله له أمرا، ولا يرفع له ذكرا، {وقل لهما قولا كريما} أي لينا طيبا حسنا بتأدب وتوقير وتعظيم، {واخفض لهما جناح الذل من الرحمة} أي تواضع لهما بفعلك، {وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا} أي في كبرهما وعند وفاتهما. وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة، (منها) الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم **صعد المنبر ثم قال: «آمين آمين آمين»، قيل: يا رسول الله علام أمنت؟ قال: "أتاني جبريل، فقال: يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك، قل آمين، فقلت آمين، ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له، قل آمين، فقلت آمين، ثم قال رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخله الجنة، قل آمين، فقلت آمين" (أخرجه الترمذي)**

والحديث في الصحيح، من حديث الثلاثة الذين أطبق عليهم فم الغار بصخرة، فتوسلوا بصالح الأعمال، فقال أحدهم، اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَلِي صَبِيَّةٌ صَغَارٌ كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ وَلَدَيَّ وَإِنَّهُ نَأَى بِي الشَّجَرُ فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ فَجِئْتُ بِالْجَلَابِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أَوْقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصَّبِيَّةِ قَبْلَهُمَا وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاغُونَ عِنْدَ قَدَمَيَّ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَائِي وَدَأْبُهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَيَّI

وكذا من أولى الناس بالتوقير والتقدير المعلم والأستاذ:

العلماء هم ورثة الأنبياء كما أخبر المعصوم عليه السلام: حيث قال: إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر. (الترمذي وابن حبان بسند صحيح) وهذا تأكيداً لقول الحق سبحانه: (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (سورة المجادلة : 11) فهم الوارثون لما تركه الرسول، لأنه القائل: "بلغوا عني ولو آية" رواه البخاري، والقائل في طلاب العلم: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ" كما رواه مسلم، والقائل: "إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ" كما رواه أحمد وابن حبان والحاكم، والقائل: "يَا أَبَا ذَرٍّ لَأَنْ تَغْدُو فَتَتَعَلَّمَ بَابًا مِنَ الْعِلْمِ، عَمَلٌ بِهِ أَوْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ" كما رواه ابن ماجه بإسناد حسن، كما أن الله أرتضي أهل العلم ليشهدهم علي وحدانيته، سبحانه، وهم أكثر الناس خشية ومعرفة بقدر الله.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ لَمْ يَحْتَمِلْ ذُلَّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً بَقِيَ فِي ذُلِّ الْجَهْلِ أَبَدًا، ولله در القائل: إِنَّ الْمُعَلَّمَ وَالطَّبِيبَ كِلَاهُمَا ... لَا يَنْصَحَانِ إِذَا هُمَا لَمْ يُكْرَمَا، فَاصْبِرْ لِدَائِكَ إِنْ أَهَنْتَ طَبِيبَهُ ... وَاصْبِرْ لِجَهْلِكَ إِنْ جَفَوْتَ مُعَلِّمًا.. ولله در الإمام علي لما قال: ما الفخر إلا لأهل العلم ... «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُجَلَّ كَبِيرُنَا، وَيَرْحَمَ صَغِيرُنَا، وَيَعْرِفَ لِعَالِمِنَا» وفي رواية، لعالمنا حقه، (الإمام أحمد والحاكم في المستدرک) وروى الطبراني مرفوعاً : تواضعوا لمن تعلمون منه، وروى الطبراني أيضاً مرفوعاً : ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق : ذو الشيبة في الإسلام وذو العلم والإمام المقسط، وفي الحديث : إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ ، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه ، وإكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمَقْسُطِ (أبو داود - حسن)

وقد أثر عن الإمام النووي رحمه الله رضي عنه : أنه دعاه يوما شيخه الكمال الإربلي ليأكل معه فقال يا سيدي أعفني من ذلك . فإن لي عذرا شرعيا فتركه فسأله بعض إخوانه ما ذلك العذر ؟ فقال أخاف أن تسبق عين شيخي إلى لقمة فأكلها وأنا لا أشعر . وكان رضي الله عنه إذا خرج للدرس ليقرأ على شيخه يتصدق عنه في الطريق بما تيسر ويقول اللهم استر عني عيب معلمي حتى لا تقع عيني له على نقیصة ولا يبلغني عنه عن أحد رضي الله عنه .

وقد قيل للإسكندر: إنك تعظم معلمك أكثر من تعظيمك لأبيك، فقال: لأن أبي سبب حياتي الفانية، ومؤدبي ومعلمي سبب الحياة الباقية، ورحم الله أمير الشعراء حيث يقول: قُمْ لِلْمُعَلِّمِ وَفِيهِ التَّبَجِيلَا ... كَادَ الْمُعَلِّمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا -- أَعْلِمْتَ أَشْرَفَ أَوْ أَجَلَّ مِنَ الَّذِي ... يَبْنِي وَيُنْشِئُ أَنْفُسًا وَعُقُولًا -- سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ خَيْرَ مُعَلِّمٍ ... عَلَّمْتَ بِالْقَلَمِ الْقُرُونَ الْأُولَى --- نَّ الشَّجَاعَةَ فِي الْقُلُوبِ كَثِيرَةٌ ... وَوَجَدْتُ شُجْعَانَ الْعُقُولِ قَلِيلًا .

وكان سيدنا ابن عباس رضي الله عنه وهو حبر الأمة، وهو من دعى له النبي ﷺ فقال: : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) (فتح الباري وانظر صحيح البخاري بدون الزيادة) ابن عباس رديف النبي ﷺ: الذي قال له: " احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدَهُ أَمَامَكَ .. (مسند الإمام أحمد - صحيح) يأخذُ بركابِ زيدِ بنِ ثابتِ الأنصاريّ - رضي الله عنه - ويقول: هكذا أمرنا أنْ نفعلَ بعلمائنا وكبرائنا، وسيدنا زيد رحمه الله رضي عنه، مفتي المدينة، وكاتب وحي سيدنا رسول الله ﷺ، ومن أكثر الصحابة رواية لحديث سيدنا رسول الله مع سيدنا بلال وأنس وجمع من الصحابة رضوان الله عليهم.

وهذا شيخنا الإمام مسلم بن الحجاج جاء إلى محمد بن إسماعيل البخاري، فقبل بين عينيه وقال دعني حتى أقبل رجلك يا أستاذ

الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث وعلمه، وهذا هو سيدنا سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ: لَقَدْ كُنْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَلَامًا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ عَنْهُ، فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا أَنْ هَا هُنَا رِجَالًا هُمْ أَسَنُّ مِنِّي (صحيح مسلم) (كان رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سقى قال أبدئوا بالكبير) (شعب الإيمان واسناده جيد)

ومن باب التوقير احترام الأخ الأكبر واحترام كل من هو فوقك في

العمر، فأخاك أخاك، فمن لا أخ له كساع في الهيجاء بلا درع ولا سيف، وهذا موسى عليه السلام، لا ينس فضل شقيقه، فيقول: كما حكى القرآن الكريم: وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا (القصص 34)، وفي موضع آخر يقول: وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونُ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32)

وهكذا يتكامل موسى وهارون ويُعوّض كل منهم النقص في أخيه. ويُقال: إن هارون عليه السلام كان يمتاز على موسى في أمور أخرى، فكان به لِينٌ وَحِلْمٌ، وكان موسى حاداً سريع الغضب، فكان هارون للين، وموسى للشدة. ويتضح هذا حينما عاد موسى إلى قومه، وقد تركهم في صُحْبَةِ أخيه هارون فعبدوا العجل فاشتد غضبه، كما قال تعالى: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا} [الأعراف: 150].

تم احتدّ على أخيه، وجذبه من ذَفْنِهِ، وظهرت حِدَّتُهُ. وقَسَوَتُهُ، فماذا قال هارون؟ {قَالَ ابْنُ أُمٍّ} [الأعراف: 150] ليستعطفه ويذكره برأفة الأم وحنانها {لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي} [طه: 94] ، كأنه يقول لأخيه: اضربني كما تريد، لكن لا تروعي في لحيتي، وفي رأسي. إذن: فالفصاحة في هارون تجبر العقدة في لسان موسى، واللين يجبر الشدة والحدة. وموسى عليه السلام مع ما تميّز به أخوه هارون عليه من هذه الصفات لم يحقد على أخيه، ولم ينظر إليه على أنه أفضل منه، إنما جعل صفات أخيه مكملة لصفاته، والجميع من أجل أداء الرسالة وتبليغها على وجهها

الأكمل، فلم ينظر إلى نفسه ونجاحه هو، وإنما إلى نجاح المهمة التي كلفه الله بها. وهذا حال أهل الإيمان مصداقا لقوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (الحجرات 10) وقوله ﷺ: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة) (الشيخان)

نماذج من حياة السلف: قال الشعبي صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد خل عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء فقبل زيد بن ثابت يده وقال هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم.

ونقل موسى محمد علي عن الطبراني عن أبي رجاء العطاردي قال : دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ورأيت رجلاً يقبل رأس رجلٍ وهو يقول : أنا فداؤك لو لا أنت لهلكنا فقلت من المُقْبَل ومن المُقْبَل ؟ قالوا إن ذلك عمر يقبل رأس أبي بكر رضي الله عنهما، وعن صحابة سيدنا رسول الله أجمعين.

لقد كان عمر رضي الله عنه يجل أهل العلم ويوقرهم، ومن ذلك تكريمه رضي الله عنه لابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا، ولنا أبناء مثله، فقال: إنه ممن قد علمتم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فدعاهم ذات يوم، ودعاني معهم، وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، وقال: ما تقولون {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ...} حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس، أكذلك تقول؟ قلت: لا، قال: فما

تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له، إذا جاء نصر الله والفتح، فتح مكة، فذاك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً. قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم (البخاري)

ومما روي عن عمر رضي الله عنه في توقيير العلماء ومعرفة فضلهم قوله: تعلموا العلم، وعلموه الناس، وتعلموا الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمون منه العلم، وتواضعوا لمن تُعلموه العلم، ولا تكونوا جبابرة

قال إبراهيم بن الأشعث: رأيت سفيان بن عيينة يقبل يد الفضيل بن عياض مرتين، لقد كان توقيير الكبير ورحمة الصغير شعاراً لأهل الإسلام ولأهل الدين في أحوالهم المختلفة

ما أحوجنا لتفعيل هذا الخلق، فهو خلق الأنبياء والمرسلين، وهو نهج سيدنا محمد وسنته، وقد تبرأ ﷺ ممن لا يوقر الكبير، ولا يعطف على الصغير، ولا يعرف للعلماء قدرهم، نسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا.

كتبه

خادم السيرة النبوية المطهرة

د - محمد سالم الصعيدي الشافعي الأزهري

الأستاذ المساعد بالأزهر الأنور